

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا

المهنداس
عبد
الرفاعي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ

.. بيّنت في النظرية الثالثة (الحق المطلق) أنّ الوجود يتكوّن من ثلاث مراتب :

1- الذات الإلهية وصفاتها ..

2- عالم الأمر .. وهو خارج إطار المكان والزمان ، ولا تجتمع فيه المتناقضات ،

وينتمي إليه الروح والقرآن الكريم ..

3- عالم الخلق .. وينقسم إلى عالم مخلوق غير محسوس (كالنفس البشرية وكعالمي

الملائكة والجن) ، وعالم مخلوق محسوس ..

.. وكنا قد رأينا أنّ العلوم المجردة كالرياضيات لا تجتمع فيها المتناقضات ، فالعقل

الذي يتصوّر الاثنين (كعدد مجرد عن أيّ تعلق مادّي بعالم الخلق) أكبر من الواحد ، لا

يمكنه تصوّر نقيض ذلك وهو أنّ الواحد أكبر من الاثنين .. وإذا أردنا أن نتصوّر الواحد

أكبر من الاثنين فلا بُدّ من إنزال هذه المسألة إلى عالم الخلق الذي يحوي المتناقضات ، ولا

بُدّ من تلبس هذه المسألة للمادّة ، فالتفاحة (كجسم مادّي بعيداً عن العدد المجرد)

الكبيرة أكبر من تفاحتين صغيرتين ..

ورأينا أيضاً أنه في عالم الخلق يمكننا تصوّر الشيء ونقيضه بأن واحد ، فالعقل الذي تصوّر أنّ انخفاض درجة الحرارة يؤدي إلى تقلص أقطار الجسم ، يمكنه أن يتصوّر أنّ انخفاض درجة الحرارة يؤدي إلى نقيض ذلك وهو تمدد أقطار الجسم .. فكما نعلم ، الماء في الدرجة (+4) مئويّة ، يبدأ بالتمدد مع انخفاض درجة الحرارة .. وكنا قد بينّا أيضاً أنّ القرآن الكريم - كما يؤكد مثله جلّ وعلا - لا يمكن أن يحتوي على المتناقضات لأنه ينتمي لعالم الأمر ..

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۗ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا آلَيْكَتُبٌ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾
[الشورى : 52]

.. وقد أكدّ الله هذه الحقيقة في صورة قرآنيّة أخرى ..

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾
[النساء : 82]

وهذا ما جعلنا - والكثيرين من الذين أدركوا هذه الحقيقة - ننكر مسألة الناسخ والمنسوخ من أساسها ، لأنّ هذه المسألة تهيأت بشريّة (ساحتها عالم الخلق) بوجود اختلاف بين الأحكام القرآنيّة ، وجهلٌ بحقيقة عالم الأمر الذي ينتمي إليه القرآن الكريم .. ما يجب أن نعلمه أنّ جميع الرسل عليهم السلام ، كانوا يحملون مناهج هداية للبشر ، ويُؤيّدون بمعجزات تُصدّق المناهج التي أنزلت عليهم .. فالمنهج الذي عمل به موسى عليه السلام ودعا إليه محمولٌ بالتوراة والألواح ، والمعجزة التي أُيّد بها هي العصا وغيرها من المعجزات الكونيّة .. والمنهج الذي أنزل في قلب عيسى عليه السلام محمولٌ بالإنجيل ، والمعجزة التي أُيّد بها هي إحياء الموتى بإذن الله تعالى ، وغير ذلك من المعجزات الكونيّة .. ففي كلّ الرسالات السابقة كانت المعجزة منفصلة تماماً عن المنهج ، وكانت المعجزة تحدث في ساحة عالم الخلق ، وبالتالي محكومة لإطار المكان والزمان ، فلا يشهدها إلاّ من

رآها من الذين عاصروها .. وهكذا فالمعجزات السابقة أفعالٌ من أفعالِ الله تعالى ،
ساحتها عالم الخلق ، ولأجيالٍ محدّدة في أزمنة محدّدة ..

أمّا بالنسبة للمعجزة التي أُيد بها الرسول محمد عليه السلام ، وللمنهج الذي أنزل عليه
لتبليغ البشر ، فالأمرٌ مختلفٌ تماماً ... المعجزة هي القرآن الكريم ، والمنهج هو القرآن
الكريم .. فالمعجزة هي ذاتها المنهج ..

وفي حين أنّ المعجزات السابقة ساحتها - كما قلنا - في عالم الخلق ، وأنّها فعلٌ من
أفعال الله تعالى ، وخاصّةً لأجيالٍ سابقة ، فإنّ معجزة القرآن الكريم تتعلّق مباشرة بصفات
الله تعالى (كون القرآن الكريم ينتمي لعالم الأمر) ، ومستمرّة في كلّ زمان ومكان ، لأنّ
المنهج رسالة للبشريّة في كلّ زمان ومكان ..

هذه المسألة التي تميّز القرآن الكريم (كمعجزة وكمنهج) عن المعجزات التي أُيد بها
الرسل السابقون عليهم السلام ، وعن الكتب السماويّة الأخرى ، بيّنها القرآن الكريم في
النقاط التالية :

1 - الكتب السماويّة جميعاً - بما فيها القرآن الكريم كمنهج وليس كمعجزة - هي
كلام الله تعالى ، أي أنّ معانيها وما تحمله من دلالات وأحكام هي من الله تعالى ، وهذا
لا يفرض أن تكون الصياغة اللغويّة (القول) لتلك الكتب من الله تعالى .. بينما القرآن
الكريم (كونه معجزة ملتحمة بالمنهج) إضافة إلى أنّه كلام الله تعالى - كباقي الكتب
السماويّة الأخرى - هو قول الله تعالى ، أي صياغة لغويّة من الله تعالى ..

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون : 68]

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل : 5]

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِأَهْزَلٌ ﴾ [الطارق : 13 - 14]

.. فالقرآن الكريم الذي نزل تبياناً لكل شيء ﴿ وَتَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : 89] ، يبين لنا - كما نرى - أنه قول الله تعالى ، في الوقت الذي لا تُوجد فيه آية واحدة تشير - مجرد إشارة - إلى أن الكتب السماوية الأخرى قولُ الله تعالى ..

ولذلك تحدّى الله تعالى الإنس والجن على أن يأتوا بنصٍّ مماثل للنصِّ القرآني ، في الوقت الذي لم يتحدّ البشرَ في أن يأتوا بنصٍّ مماثلٍ لنصوص الكتب السماوية الأخرى ، وهذا دليلٌ آخر على تعلّق الصياغة اللغوية للقرآن الكريم بالله تعالى وصفاته العظيمة ، وأنّ هذه الصياغة - بما تحمله من أدلّة ومعانٍ ومفاتيحٍ لتبيان كلِّ شيءٍ في هذا الكون - هي المعجزة في القرآن الكريم .. فكون القرآن الكريم من الله تعالى يقتضي كونه منهج الله تعالى ، وكونه قول الله تعالى يقتضي كونه معجزة صالحة لكلِّ زمان ومكان ..

﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : 88]

2 - الكتب السماوية الأخرى كونها مناهج مجردة عن المعجزات ، وكونها صياغة غير متعلّقة بصفات الله تعالى مباشرة ، وبالتالي كونها صياغة غير إعجازيّة ، فهي تحمل من المعاني والدلالات ما لا يخرج عن إطار ساحة إدراك المخلوقات ، ولا يُوجد تأويل لنصوص تلك الكتب خارج ساحة إدراك المخلوقات ..

بينما في نصوص القرآن الكريم (كمنهج للبشريّة جمعاء ، وكمعجزة متعلّقة بصفات الله تعالى مباشرة) ، نرى أنّه في الوقت الذي تحمل فيه هذه النصوص دلالات ومعانٍ تدركها المخلوقات ، فإنّها تحمل في الوقت ذاته دلالات لا يحيط بها إلا الله تعالى ، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بعمق التأويل ..

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران : 7]

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأعراف : 52 - 53]

فالإطار الأخير لحدود دلالات النص القرآني لا يحيط به إلا الله تعالى ، ولا يستطيع البشر النظر إلى هذا الإطار إلا في الآخرة كما يبين القرآن الكريم ..

3 - نزول الكتب السماوية السابقة لم يؤد إلى أي تغيير كوني ، كما هو الحال حينما أنزل القرآن الكريم من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا فالجن التي علمت بتزول الكتب السماوية الأخرى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٦٦﴾ قَالُوا يَنْقَوْمَاتُ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف : 29-30] ، تساءلت عن التغيير الكوني الذي حصل حينما أنزل القرآن الكريم .. فقبل نزول القرآن الكريم ، كان للجن في السماء مقاعد للسمع .. ولكن .. بعد نزول القرآن الكريم ، لم تعد هذه المقاعد موجودة ، لأن السماء مُلئت حرساً شديداً وشهباً ..

﴿ قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿٦٧﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٦٨﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٦٩﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَاقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٧٠﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٧١﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ .. من كتاب (إحدى الكبر) .. المهندس عدنان الرفاعي 6

رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنْهَمَ ظَنُونا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلَمَّتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحِجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا نَذَرِي أَشْرًا أُريدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ [الجن : 1-10]

.. والقرآن الكريم المتعلق بصفات الله تعالى العظيمة ، لو أنزل على أي مخلوق غير مكلف ، لخشع وتصدع من خشية الله تعالى ..

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر : 21]

.. وعندما يُرفع هذا الغطاء في الآخرة ، سنرى في القرآن الكريم الذي لم نره في حياتنا الدنيا ..

﴿ لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمْ فَبَصَرُكُمْ أَلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق : 22]

ولذلك .. فالقرآن الكريم يُتعبَّد بتلاوته ، لأننا بتلاوته نقول على ألسنتنا الماديّة في عالم الخلق (عالم المادّة والمكان والزمان) ما قاله الله تعالى في عالم ما فوق المادّة والمكان والزمان ، وبالتالي نسمو - بتلاوتنا للقرآن الكريم - إلى ذلك العالم بمقدار إيماننا وخشوعنا وتصديقنا بهذا القرآن ، وبمقدار انصياعنا لما يحمله من أحكام ..
إذاً .. القرآن المنهج ، هو الأحكام والأدلة الواضحة التي يحملها ، ويُطلب من البشر تنفيذها .. والقرآن المعجزة ، هو الصياغة المطلقة التي صاغها الله تعالى ، بحيث تحمل أسرار الكون في أعماقها ، وبحيث تحمل لكلّ جيلٍ من الأدلّة والمعاني ما يُناسب علمه وحضارته ..

وفي القرآن المنهج (أعني هنا أحكام العبادات والمعاملات) ما لا يختلف إدراكه كثيراً من جيلٍ لجيلٍ .. بينما في الدلالات الأخرى ، هناك ما يختلف إدراكه كثيراً من جيلٍ لجيلٍ .. وقمة الجهل أن تتصور ما يحمله كتاب الله تعالى من دلالات وأن نتعامل معه ، على أنه ثابتٌ عند إدراك جيلٍ محدّدٍ من الأجيال ..

.. هجر القرآن هو هجرٌ للدعوة الحق إلى الله تعالى ، ومحاولةٌ لقتل مفهوم الرسالة من أساسها .. لقد توقّف مجيء الرسل بعد محمد عليه السلام ، لأنّ القرآن الكريم منهجٌ يستوعب حركة الحياة حتى قيام الساعة ، ولأنّ القرآن الكريم معجزة متجدّدة حتى قيام الساعة .. وبالتالي .. فإنّ الذين يجاربون التدبّر الإعجازي في القرآن الكريم ، ويجاربون التدبّر لاستنباط أحكامه في كلّ جيل ، لا يختلفون - من حيث النتيجة - عن قتلة الرسل لإطفاء نور الحق الذي يحمله هؤلاء الرسل عليهم السلام ..

وهذه الصياغة المطلقة للنصوص القرآنيّة تتكوّن من مفردات لغويّة ، وهذه المفردات هي في النهاية مسمّيات للأموور والأشياء .. لذلك إذا أردنا تدبّراً حقيقيّاً لهذه الصياغة ، علينا أن نبدأ بتدبّر المفردات القرآنيّة التي هي مسمّيات المسائل التي يصفها ويصوّرها القرآن الكريم ..

نحن البشر عندما نكتشف شيئاً جديداً في هذا الكون لم نعرفه مسبقاً ، أو حينما نصنع شيئاً ما ، ونريد أن نسمّي تلك الأشياء التي لم نعرف لها مسمّيات مسبقة ، فإنّ التسميات التي نُطلقها على الأشياء تتصف بالصفات التالية :

1 - ترتبط هذه التسميات بدرجة إدراكنا لماهيّة المسمّيات .. فالتسمية بمقدار ما تصوّر حقيقة الشيء ، بمقدار ما تكون قريبةً من وصفه الوصف الحق ، وبالتالي فالتسمية الحق للشيء والحالية من كلّ عيب ونقص ، تقتضي إدراكاً كاملاً لماهيّة هذا الشيء .. وبمقدار نقص إدراكنا لحقيقة الشيء الذي نريد تسميته ، تنقص تسميتنا له عن مستوى التسمية الحق ..

2 - ترتبط تسميتنا للشيء بقدرتنا على وصف ما أدركنا من ماهية هذا الشيء ، وبالتالي بمقدار ما تكون قدرتنا على وصف ما أدركناه أكبر ، بمقدار ما تكون تسميتنا لهذا الشيء أقرب إلى التسمية الحق ..

3 - ترتبط تسميتنا للشيء بدرجة إدراكنا لحيثيات تغير ماهية الشيء مع الزمن ، وبدرجة إدراكنا لحيثيات إدراك الأجيال المتلاحقة لهذا التغير ، وبالتالي تكون تسميتنا للشيء أقرب إلى التسمية الحق وإلى وصف حقيقة الشيء للأجيال المتلاحقة ، بمقدار علمنا بتغير ماهية هذا الشيء مع الزمن ، وبمقدار علمنا بتغير إدراك الأجيال المتلاحقة لماهية هذا الشيء ..

وما أكثر الأسماء التي نطلقها على الأشياء ، ثم نكتشف بعد فترة أنها تصف نقيض ما تحمله هذه الأشياء من صفات ، أو على الأقل لا تصف الأشياء وصفاً سليماً ، وذلك لأننا لم نكن نعلم حقيقة هذه الأشياء ..

نحن البشر نسَمِّي الأشياء كما نريد غير مهتمين بارتقاء تسميتنا إلى مستوى التسمية الحق ، ولو كُنَّا كالملائكة في أتباعنا للحق ، وسنحاسب على تسميتنا للأشياء ، إذا ابتعدت تسميتنا عن التسمية الحق ، لما تجرأنا على تسمية شيء واحد .. هذه الحقيقة بينها الله تعالى في القرآن الكريم بشكل واضح جلي ، حينما صور لنا طلبه من الملائكة بأن يُبئوه بأسماء الأشياء ..

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : 31 - 32]

حينما عرض الله تعالى الأشياء على الملائكة وطلب منهم أن يُبئوه بأسمائها ، لم تستطع الملائكة أن تُبئوا بالأسماء الحق للأشياء ، لأنها لم تستطع أن تعلم العلم الحق لماهية هذه الأشياء ، لذلك قالت الملائكة ﴿ سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۗ ﴾ .. ولو كان

الأمر مجرد تسمية كما نسمي نحن دون الارتقاء إلى التسمية الحق ، لما كانت هناك مشكلة أمام الملائكة ، ولسمتها كما نسمي نحن الأشياء ، ولكن التسمية المطلوبة هي التسمية الحق ، التي تصف وصفاً تاماً حقائق الأشياء ... وقد رأينا في النظرية الثانية (القدر) أن الله تعالى علم آدم الأسماء كلها في عالم ما وراء المادة والمكان والزمان ، قبل حلول نفسه في جسمه ..

.. وأشار القرآن الكريم إلى مسألة تسمية البشر للأشياء بأسماء ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، فكانت هذه الأسماء بعيدة كل البعد عن حقيقة الأشياء المسماة ..

﴿ أَتَجِدُ لُوْنِي فِيْ أَسْمَاءِ سَمِيْتُمْوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ ۙ ﴾

[الأعراف : 71]

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيْتُمْوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ

سُلْطٰنٍ ۙ ﴾ [يوسف : 40]

﴿ إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيْتُمْوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ ۙ ﴾ [النجم :

[23]

وإضافة إلى أن تسميتنا للأمور والأشياء ناقصة عن التسمية الحق ، بسبب علمنا الناقص عن العلم الكامل بحقيقة هذه الأشياء ، فإن هذه التسمية ذات خصوصية فردية وقومية ، فقد تختلف تسمية الشيء ذاته من فرد لآخر ، ومن أمة لأخرى ، حسب المناظير المختلفة التي تنظر منها الأمم وأفرادها إلى هذا الشيء ، وحسب درجات علمهم بماهيته عبر الأزمنة ، وحسب قدراتهم المختلفة على الصياغة ..

ولما كانت حقيقة الأمور والأشياء فوق الرؤى المختلفة التي تنظر منها المخلوقات إلى هذه الأمور والأشياء ، ولما كانت حقيقة الأمور والأشياء لا يعلمها أحد كعلم خالقها جلّ وعلا ، ولا أحد غير الله تعالى يستطيع ترجمة هذا العلم المطلق إلى صياغة مطلقة تصوّر تصويراً مطلقاً حقيقة هذه الأمور والأشياء ، فإن التسمية الحق والتي تصف وصفاً

مطلقاً حقيقة المُسمّى لا تكون إلاّ من الله تعالى ... فارتباط الذوات المسماة من الله تعالى بأسمائها ، يماثل تماماً ارتباط المادّة بصورتها ..

.. الكلمة المقولة هي الوعاء الذي يحوي المعنى ، والتسمية المطلقة تقتضي علماً مطلقاً في المعنى (الكلام) ، وعلماً مطلقاً في الوعاء المُصاغ لاحتواء المعنى (القول) .. وأيُّ ابتعادٍ عن المطلق في المعنى أو في الوعاء ، تفقد التسمية مُطلقاً ..

.. ولما كان القرآن الكريم تبياناً لكلِّ شيءٍ ، كما يؤكّد مُترله جلّ وعلا ﴿ وَنَزَّلْنَا

عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : 89] ، فهذا يقتضي أن تكون الأسماء الحق

التي علّمها الله تعالى لآدم ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [النحل : 89] ، من جملة الأشياء التي نزل القرآن الكريم تبياناً لها ، حيث نزل تبياناً لكلِّ شيءٍ ..

ولما كان القرآن الكريم تبياناً لكلِّ شيءٍ ، فهذا يقتضي أن مفاتيح مسمّيات الأسماء كلّها في هذا الكون ، تحملها المفردات القرآنيّة .. ولما كان آدم عليه السلام في عالم ما وراء المادّة والمكان والزمان قبل حلول نفسه في جسده (كما رأينا في النظريّة الثانية - القدر -) ، قد علّمه الله تعالى الأسماء كلّها ، فهذا يقتضي أن تكون المفردات القرآنيّة علّمها الله تعالى لآدم عليه السلام وهبط بها إلى الأرض ..

وماهيّة القرآن الكريم كونه الوحيد - من بين الكتب السماويّة - قول الله تعالى ، وكونه يتعلّق مباشرة بصفات الله تعالى ، وكونه يحمل مفاتيح أسرار الكون ، وكونه معجزة مستمرة حتى قيام الساعة ، وكونه منهج هداية للبشريّة جمعاء ، وكونه يحمل عُمق التأويل الذي لا يعلمه إلاّ الله تعالى .. كلُّ ذلك .. يقتضي أن تكون كلماته فطريّةً مُوحاة من الله تعالى ، علّمها لآدم عليه السلام قبل حلول نفسه في جسده ..

.. وعندما هبط آدم عليه السلام إلى الأرض ، كانت الكلمات الفطريّة التي تعلّمها من الله تعالى ، اللسان الأوّل للإنسانيّة ، ومع الزمن ، بدأت ألسنة البشر تتفرّع وتتوسّع باتجاهات مختلفة ، فحافظت بعض الألسنة على بعض المفردات الفطريّة ، وهذا ما يُفسّر

وجود بعض المفردات القرآنية في السنة أُخرى .. ومع الزمن قلَّ استعمال بعض هذه المفردات الفطرية عند قوم العرب ، الذين احتوى لسانهم القومي على المفردات الفطرية ، وهذا ما يُفسَّر قول ما ذهب إليه بعض أفراد الأجيال الأولى وبعض من تبعهم ، بأنَّ بعض الكلمات القرآنية ليست عربية ..

.. كلُّ الألسنة العالمية (ما عدا المفردات القرآنية) هي السنة وضعية ، تفرَّعت وابتعدت عن اللسان الفطري الذي نزل به آدم عليه السلام ، وتقرب هذه الألسنة من الفطرة ، وتبتعد عنها ، بمقدار اقترابها وابتعادها عن اللسان الفطري الذي علَّمه الله تعالى لآدم عليه السلام ..

.. وهكذا فإنَّ اللسان الفطري الذي يحمل مفاتيح التسمية الحق لكلِّ ما هو موجود في هذا الكون ، انحصر داخل إطار لسان حافظت عليه أمة فطرية ، استمرت بفطرتها منذ آدم عليه السلام إلى محمَّد عليه السلام .. لقد وضعت هذه الأمة الكثير من التسميات الوضعية داخل لسانها ، لكنَّها حافظت على المفردات التي نزل بها آدم عليه السلام .. وتخيَّل بعضهم أنَّ بعض المفردات القرآنية التي قلَّ استعمالها عند العرب وانتقلت إلى السنة أُخرى ، أو حافظت عليها السنة أُخرى .. تخيَّلوها ليست عربية بالمعنى القومي .. مع أنَّها عربية بالمعنى الفطري الموحى من الله تعالى ، واستعمالها القومي لا يلغي فطريتها ، لأنَّها أصلاً ليست وضعية من قبل البشر ..

وقد بيَّنا في النظرية الأولى (المعجزة) أنَّ صفة الأمية هي صفة الفطرة وعدم التأثر بالمجتمعات المحيطة ، وتعني المحافظة على الفطرة .. وبالتالي فإنَّ أمة اللسان تصف تماماً مجتمع الجزيرة العربية المعزول حضارياً - بشكل نسبي - عن الأمم الأخرى ، والذي لا يملك ما يفخر به إلا اللسان الذي ينطق به .. فهو مجتمع أمي فطري يحمل لسانه اللسان الفطري منذ آدم عليه السلام إلى محمَّد عليه السلام ، بل إلى قيام الساعة ، إضافة إلى ما أضافه ويضيفه هذا المجتمع من تسميات للمسائل عبر تاريخه الحضاري ..

وحكمة الله تعالى اقتضت أن يُتزل منهجه المعجز للبشرية جمعاء ، والحامل لمنهج الهداية للبشرية جمعاء ، بلسانٍ فطريٍّ أوحاه لأبي البشرية جمعاء (آدم عليه السلام) ، على رسول أمِّي فطري ، يعلم اللسان الفطري الموحى من الله تعالى ، وينتمي إلى مجتمع أمِّي فطري يعلم هذ اللسان الفطري ، حتى يكون هذا المنهج وهذه المعجزة للبشرية جمعاء التي تفرّعت ألسنتها عن لسان صياغة هذا المنهج ..

وهكذا .. فأدم عليه السلام تعلّم المفردات الفطرية من الله تعالى ، وهبط بها إلى الأرض كأول إنسان مُمتحن على هذه الأرض .. ومحمد عليه السلام نزل عليه قول الله تعالى ، كآخر رسول على وجه الأرض .. فالمسألة بدأت بآدم عليه السلام ، واكتملت بمحمد عليه السلام ، لتشمل البشرية جمعاء ، عبر منهج ومعجزة للبشرية جمعاء ..

إنها حكمة الله تعالى ، فرسول البشرية جمعاء لسانه لسانٌ ولغةٌ تجمع البشرية جمعاء قبل تفرّع ألسنتها المختلفة عن اللسان الفطريّ الأم الذي نزل به القرآن الكريم .. وبالتالي فإنّ تعلّم لسان القرآن الكريم لإدراك دلالاته ، هو في الحقيقة عودةً لسان الفطري الأم ، أي عودةً إلى التسميات الحق التي علّمها الله تعالى لآدم عليه السلام ..

قد ينظر بعضهم إلى هذا الكلام على أنّه ضربٌ من الخيال .. وهنا ، نقول لمن يؤمن بالقرآن الكريم ويرى كلامنا هذا ضرباً من الخيال ، لقد قدّمنا من النصوص القرآنية دليلاً على صحّة هذا القول ، وسنقدّم دليلنا الرياضي لك وللذين لا يؤمنون بتزول القرآن الكريم من عند الله تعالى في الفصول القادمة .. ولكن .. هل يُعقل أنّ الله تعالى يُفرغ معانيه وأحكامه وأدلّته (كلامه) في قوالب السنة من وضع البشر لا يرون أمامهم أكثر من بضع كيلو مترات ، ثمّ يقول عن تلك القوالب إنّها قولي الذي أتحدّى الإنس والجن أن يصوغوا مثله ، وإنّها قولي الذي يحوي مفاتيح أسرار الكون ، وإنّها تبيانٌ لكلّ شيءٍ في هذا الكون ، وإنّها تحمل عمقاً من التأويل لا يعلمه إلاّ الله تعالى !!! ..

وهذه الصفة التي يتّصف بها القرآن الكريم ، بأنّ كلماته فطريّة موحاة من الله تعالى ومصاغة صياغة مُطلقة تحمل كلّ أسرار الكون .. هذه الصفة بيّنها الله تعالى في كتابه الكريم ..

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : 2]

فالكلمتان ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ تعنيان بإطارهما العام ، قرآنًا كاملاً تاماً شاملاً مفصلاً ، لا عوج فيه ، وخالياً من أيّ عيب أو نقص .. ومعناها ليس محصوراً بإطار التفسير المعروف - تقليدياً - بأنّه قرآن بلسان قوم العرب ... هو قرآنٌ بلسان ينطق به قوم العرب ، ولكنّ هذا المعنى يأتي من جملة المعاني المرادة ، لأنّ لسان قوم العرب يحمل المفردات القرآنيّة الفطريّة الموحاة من الله تعالى ، كما رأينا .. ودليلنا في هذا المذهب من التفسير هو الآتي :

1 - قوله تعالى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ في نهاية الآية الكريمة ، هو خطاب للبشريّة جمعاء ، وليس خطاباً خاصّاً بالعرب دون غيرهم ، لأنّ القرآن الكريم أنزله الله تعالى لجميع البشر وليس للعرب وحدهم ..

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسُيِّدْهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنِّهِ وَفَضْلِ وَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [النساء : 174 - 175]

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[سبأ : 28]

.. والجزم بأن الكلمتين ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ لا تعينان إلا قرآناً بلسان قوم العرب ،
يقتضي أن نهاية الآية الكريمة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ خطابٌ موجّهٌ حصراً للعرب .. وهذا
يتعارض مع حقيقة القرآن الكريم ككتاب للبشريّة جمعاء ..

2 - ودليلٌ آخر على أنّ كلمة (عرب) تعني التمام والكمال والخلو من العيب
والنقص ، هو قول الله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ۖ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۗ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة : 35 - 37]

فكلمة ﴿ عُرُبًا ﴾ مشتقة من الجذر (ع ، ر ، ب) ، ولا تخرج في معناها عن إطار
المعنى الذي يحمله هذا الجذر ، ونرى أنّها لا يمكن أن تعني أنّ أولئك اللاتي سينشئن الله
تعالى في الآخرة لأصحاب اليمين ينتمين لقوميةٌ محدّدة .. فالأولى بمعيار القرآن الكريم
عقلاً ومنطقاً أن يكون معنى كلمة ﴿ عُرُبًا ﴾ هو أنّ اللاتي سينشئن الله تعالى في الآخرة ،
كاملات تامّات خاليات من أيّ عيب أو نقص ..

3 - ومن متعلّقات القرآن الكريم كونه عربياً أنّه غير ذي عوج ..

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ قُرْآنًا

عَرَبِيًّا غَيْرِ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر : 27 - 28]

4 - والقرآن الكريم عربي لأنه فصلت آياته تفصيلاً كاملاً لكلّ عالمٍ ومتعلّمٍ يريد أن
ينهل من علومه ..

﴿ كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : 3]

5 - والله تعالى أنزل القرآن الكريم ، حال كونه حكماً تاماً كاملاً ، لا عيب فيه ولا
نقص ..

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ [الرعد : 37]

.. فالحكم مسألة مُجرّدة تماماً عن اللسان من حيث خصوصيّتها القوميّة ، وبالتالي نرى أنّ كلمة ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ تصف لنا وجه الكمال والتمام والخلو من أيّ عيب أو نقص في الحكم الذي أنزله الله تعالى ..

6 - ومن خصائص إنزال القرآن الكريم أنّه أنزل بلسان كأسلوب وبيان ، بحيث يتّصف بالكمال والتمام والخلو من أيّ عيب أو نقص .. وليس بلسان أسلوبه وبيانه كأسلوب البشر وبيانهم الذي لا بُدّ وأن يحمل العيب والنقص ، لأنّ علم البشر - مقارنة مع علم الله تعالى - علم ناقص ..

﴿ وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل : 103]

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء : 193 - 195]

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّبُنْدَرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَثُرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأحقاف : 12]

ففي الآية الأخيرة نرى أنّ الذين يُنذَرهم القرآن الكريم ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ، والذين يُبشّرهم القرآن الكريم ﴿ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، موجودون في كلّ الأمم ، وليسوا حصراً على قومٍ مُحدّدين (قوم العرب) .. ولذلك فالكلمتان ﴿ لِسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ تعنيان أسلوباً وبياناً كاملاً تاماً حالياً من أيّ عيب أو نقص ..

فاللسان هو آليّة التفاهم وأسلوب المخاطبة ووسيلة البيان ..

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم : 50]

.. وحكمة الله تعالى تقتضي أن يُرسل كلَّ رسولٍ بلسانِ قومه ، حتى يُبين لهم المنهج الذي يحمله ..

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم : 4]

ولذلك فجميع الرسائل السابقة نزلت (صياغة) بألسنة البشر الوضعيّة ، لأنّها تحمل مناهج لأقوامٍ مُحدّدين في أزمنة مُحدّدة ، وبالتالي لم تكن قولَ الله تعالى ، إنّما كانت فقط كلامَ الله تعالى .. بينما نرى أنّ منهج البشريّة جمعاء (القرآن الكريم) نزل قولاً لله تعالى ، بلسانٍ فطريّ نطق به أبو البشريّة جمعاء (آدم عليه السلام) ..

.. فمنهج البشريّة جمعاء ، لا بُدَّ أن يكون بلسانٍ فطريّ يجمع البشريّة جمعاء ، كلسانٍ فطريّ هو اللسان الأوّل الذي عرفته البشريّة .. وهذا لم يتوفّر إلاّ باللسان الفطري الذي حافظ عليه الأميون منذ آدم عليه السلام إلى مبعث مُحمّد عليه السلام ..

.. ومن مشتقات الجذر (ع ، ر ، ب) ، كلمة ﴿ الْأَعْرَابُ ﴾ ، والتي تصوّر لنا البشر الذين يتظاهرون بالكمال والتمام والخلو من العيب والنقص ، ولا يعترفون بعيوبهم .. فكلمة (عرب) هي من الفعل الثلاثي (عَرَبَ) ، عَرَبَ ← عربي .. وكلمة ﴿ الْأَعْرَابُ ﴾ هي من الفعل الرباعي المتعدّي بالهمز (أعرب) ، أعرب ← أعرابي .. فكلمة ﴿ الْأَعْرَابُ ﴾ ليست جمعاً لكلمة (عَرَبِي) ..

.. وقد بينت في أبحاثي الأخرى أنّ همزة التعدّي تُغيّر جهة حركة دلالة الفعل ، كفعلٍ يستمدُّ دلالاته من جذره اللغوي .. ويكون ذلك :

✿ إذا بنقل جهة دلالة الفعل ، المتعلقة بشي ، من الاتّجاه نحو الذات ، إلى الاتّجاه نحو ذاتٍ أُخرى ..

✿ وإمّا بتغيير جهة دلالة الفعل ، ما بين كونها من الذات باتّجاه شيء ، لجعلها من الشيء باتّجاه الذات ..

.. وهذا أمر معلومٌ في كتاب الله تعالى .. مثلاً .. القاسطون (من الثلاثي - قَسَطَ) هم نقيض المُقسطين (من الرباعي المتعدّي بالهمز - أقسط -) ، فلا شكَّ أنَّ جهة دلالة الفعل تتغيّر بسبب دخول همزة التعدّي على الفعل الثلاثي : عرض ، أعرض ... شرب ، أشرب ... ذاق ، أذاق ... طاق ، أطاق ... لبس ، ألبس إلخ ..

.. فالأعراب يتعدّون على صفة الكمال والتمام والخلو من العيب والنقص ، ويصفون أنفسهم بها ، مع أنّهم نقيض ذلك .. فصفاتهم مخالفة تماماً لما تحمله كلمة (عَرَبَ) ..

ولمّا كان البشر في الحياة الدنيا لا يُمكن أن يصلوا إلى مرتبة الكمال والتمام والخلو من أيّ عيب أو نقص ، فإننا نرى أنّ الكلمات [﴿ عَرَبِيٌّ ﴾] ، ﴿ عَرَبِيٌّ ﴾ ، ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ ، ﴿ عُرْبًا ﴾] ، وهي باقي مشتقات الجذر (ع ، ر ، ب) في القرآن الكريم ، تأتي في القرآن الكريم لتصوّر لنا صفات كتاب الله تعالى ، واللاقي سيُنشئهنّ الله تعالى في الآخرة لأصحاب اليمين ، ولا تأتي هذه الكلمات أبداً لتصوّر لنا البشر في الحياة الدنيا .. بينما تأتي كلمة ﴿ الْأَعْرَابُ ﴾ لتبيّن لنا صفة الذين يتظاهرون بالكمال والخلو من العيوب والنواقص ، مع أنّهم غارقون في العيوب والنواقص ..

.. والجزم بتفسير كلمة ﴿ الْأَعْرَابُ ﴾ في جميع كتب التفسير ، بأنّها لا تعني إلاّ البدو (سكان البادية) ، يتعارض تماماً مع روح القرآن الكريم ، الذي يصف البشر ويُقيّمهم حسب انتماءاتهم العقيدية ، لا حسب انتماءاتهم الجغرافية والإقليمية ..

ولو كانت كلمة ﴿ الْأَعْرَابُ ﴾ لا تعني إلاّ البدو (سكان البادية) ، لاستبدلت - في كتاب الله تعالى - بكلمة البدو ، فكلمة ﴿ الْبَدْوُ ﴾ كلمة قرآنية ، وفي القرآن الكريم لا تُوجد كلمة مُرادفة لكلمة أخرى بالمعنى الذي يتصوّره بعض البشر ..

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ [يوسف : 100]

.. وتما يُقابل كلمة ﴿ عَرَبِيٌّ ﴾ التي تعني - كما رأينا - الكمال والتمام والخلو من العيب والنقص ، هو كلمة (أعجمي) ، التي تعني عدم الكمال وعدم التمام ، وتعني وجود العيب والنقص .. يقول الله تعالى ..

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [الشعراء : 198 - 201]

من الواضح في هذه الصورة القرآنية أنّ كلمة ﴿ الْأَعْجَمِينَ ﴾ لا تعني أبعاداً قومية ، ولا تعني غير البشر ، إنّما تعني صفاتٍ سلبيةً في نفوس بعض الأعجمين ، تحمل من العيب والنقص والابتعاد عن الحق ما يجعلهم لا يُؤمنون بالقرآن الكريم ، ولا يرون فيه الحقّ ودلائل الإعجاز التي تُبين كماله وتمامه وخلوّه من أيّ عيب أو نقص ..

ولو أخذنا هذه الكلمة ﴿ الْأَعْجَمِينَ ﴾ حسب المعنى الذي ذهبت إليه التفاسير ، لتناقض ذلك مع ما يحمله القرآن الكريم من أدلّة ، ومع الواقع الذي نراه بأمّ أعيننا .. - يتناقض هذا المذهب من التفسير مع كون القرآن الكريم أنزل للبشريّة جمعاء ، وليس لقوم العرب وحدهم .. فبعض الأعجمين (إن كانت كلمة الأعجمين تحمل معنى قومياً كما تذهب التفاسير) أنزل عليهم القرآن الكريم ، لأنّهم من جملة الناس الذين أنزل إليهم القرآن الكريم .. وبالتالي فالعبارة الكريمة ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾ لا يمكن أن تعني بعض ما هو ليس من قوم العرب ، لأنّ المجرمين الذين تصفهم الآيات الكريمة التالية لهذه الآية ، والذين لا يُؤمنون بالقرآن الكريم حتى يروا العذاب الأليم ، موجودون في قوم العرب وفي كلّ الأقوام ..

- ويتناقض هذا المذهب من التفسير مع الواقع ، فغير العرب الكثير منهم آمن بالقرآن الكريم ، والله تعالى يقول عن بعض الأعجمين ﴿ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ .. فلا تُوجد أمة إلا وفيها من آمن بالقرآن الكريم .. ولذلك .. فإنَّ الجزم بأنَّ العبارة القرآنيَّة ﴿ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾ تعني بعض القوميَّات الأخرى ، يتناقض مع وجود المؤمنين بالقرآن الكريم في كلِّ القوميَّات ، ومع كون القرآن الكريم منهجاً لكلِّ القوميَّات دون استثناء .. والآية الكريمة التالية ، بتفسيرها المنسجم مع روح القرآن الكريم ككتاب مُنزل للبشريَّة جمعاء ، ومع ساحة رسالة محمد عليه السلام ، والتي هي للبشريَّة جمعاء ، تُؤكِّد صحَّة ما نذهب إليه في تفسيرنا لكلمة أعجمي ..

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ؕ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ؕ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ؕ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ؕ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : 44]

ذهبت التفاسير - تقليداً - إلى أنَّ كلمة ﴿ أَعْجَمِيٌّ ﴾ في هذه الآية الكريمة تعني قرآناً بلسان غير قوم العرب ، وإلى أنَّ كلمة ﴿ وَعَرَبِيٌّ ﴾ تعني رسولاً عربيّاً ، أو قوماً عرباً .. وهذا المذهب من التفسير يتعارض مع القرآن الكريم في النقاط التالية :

1 - الكلمتان ﴿ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ كلمتان قرآنيَّتان مُتتاليتان بينهما حرف عطف ، وإعادة كلِّ منهما إلى أمرٍ مختلفٍ عن الأمر الذي تُعاد إليه الكلمة الأخرى دون أيِّ دليل ، أمرٌ يتعارض مع انسجام روح النصِّ القرآني .. فالأولى أن تُعاد الكلمتان إلى أمرٍ واحدٍ ..

2 - إن كان المقصود - كما ذهبت التفاسير - بالعبارة القرآنيَّة ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ؕ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ أنه لو أنزل القرآن الكريم بلسان قوميَّة أخرى ، لقال العرب - مُحتجِّين - كيف يكون القرآن بلسانٍ مخالفٍ للسانهم

القومي ... لو كان هذا المذهب من التفسير صحيحاً ، لأذى ذلك - سواء علم من يجزم بهذا التفسير أم لم يعلم - إلى أن لغير العرب مبررات الاحتجاج على كون لسان القرآن الكريم يتعارض مع ألسنتهم القومية ، وعلى كون لسان الرسول عليه السلام يتعارض أيضاً مع ألسنتهم القومية .. وبالتالي فهذا المذهب من التفسير يتعارض تماماً مع حقيقة القرآن الكريم ككتاب للبشرية جمعاء ، ويتعارض مع حقيقة بعث محمد عليه السلام للبشرية جمعاء ، على مختلف قومياتها وألسنتها ..

3 - نهاية الآية الكريمة ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ۗ وَالَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۗ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ،

تُبيِّن حقيقة تفاعل البشرية جمعاء مع القرآن الكريم ، وليس العرب وحدهم ، فانقسام البشرية إلى قسم يؤمن به وقسم لا يؤمن به ، مسألة لا يمكن حصرها بقوم العرب ..

.. الله تعالى يقول لنا من خلال هذه الصورة القرآنية ، ولو جعلنا هذا القرآن بماهية

ليست كاملة وليست تامة وليست خالية من أي عيب أو نقص ، ولو جعلنا آياته ليست مفصلة وليست مبيّنة بتمام كامل من أي عيب أو نقص ، لكان القرآن الكريم حاوياً على العيب والنقص ، ولرأوا فيه العيب والنقص ، ولحسبوا أن فيه من الكمال والتمام حسب ما يناسب أهواءهم من هذا العيب ، وبالتالي لقالوا كيف يكون ذلك ، أعيب ونقص ، وكمال وتمام ..

وهكذا نرى كيف أن الكمال والتمام والخلو من العيب والنقص ، وهذا ما يتّصف به

القرآن الكريم ، كتاباً وحكماً ولساناً ، هو نتيجة لكون مفرداته فطرية موحاة من الله تعالى بعيداً عن أي اختيار بشري ، ونتيجة لربط هذه المفردات مع بعضها بعضاً في العبارة القرآنية (كصيغة لجمال النص) ، وفق حكمة مطلقة وعلمٍ مطلقٍ من الله تعالى ..

ولذلك نرى كيف أن دلالات المفردات القرآنية في العبارة القرآنية ، تحمل من الأدلة

والمعاني أكبر بكثير مما تُبيّنه لنا قواميس اللغة العربية ، ومن أن تُحيط تصوراتنا بهذه الأدلة

والمعاني ، ونرى أيضاً أنّ صياغة القرآن الكريم فوق قواعد اللغة العربية التي تمّ تعييدها من قبل البشر ..

ولما كانت المفردات القرآنية تُسمّى ماهية الأشياء تسمية مطلقة ، فإنّ ذلك يقتضي أنّ الكلمات القرآنية التي تُسمّى تلك الأشياء ، تتقارب في بنيتها اللغوية تقارباً يوازي تقارب الأشياء بخواصّها وصفاتها ، من منظار علم الله تعالى ..

.. ولذلك .. يدخل الحرف القرآني في معادلة الوصف كواحدة معنى ، وليس كمجرّد لبنة صوتية في بناء الكلمة ، وأكبر دليل على ذلك هو الحروف النورانية في بداية بعض السور ، والتي منها ما يأتي في آيات كعبارات قرآنية مستقلة ، ولا يُمكن لعقل أن يتصوّر أنّها مجردّ واحداث صوتية دون معنى ..

﴿ الرَّ كِتَبُ أَحْكَمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : 1]

فاللبنة الأولى للمعنى في القرآن الكريم هي الحرف القرآني ، وتأتي الكلمة القرآنية وصفاً مطلقاً لماهية الموصوف ، من خلال اجتماع معاني الحروف المكوّنة لهذه الكلمة بترتيب مُعيّن .. فالكلمات التي تتكوّن من الحروف ذاتها ، يعود الاختلاف في ما تحمله من معاني إلى الاختلاف في ترتيب الحروف المكوّنة لهذه الكلمات ، مع الأخذ بعين الاعتبار كون الحرف ينتمي للجذر اللغوي الذي تفرّعت عنه الكلمة ، أو كونه لا ينتمي إلى هذا الجذر .. وكلّ ذلك ضمن قوانين ونظم مطلقة ، تنتظم بها واحداث المعنى (الحروف) في صياغة مطلقة صاغها الله تعالى من اللبنة الأولى للمعنى وهي (28) حرفاً قرآنيّاً ، بحيث يتمّ من خلالها الوصف المطلق للأمور والأشياء ، وصفاً يحمل مفاتيح لكلّ شيء في هذا الكون ..

والمفردات القرآنية الفطرية (بما فيها الحروف كواحدات معنى) صالحة لتسمية كلّ ما في الكون ، وذلك من منظار حقيقتها وماهيتها ، لا من منظار ما نراه من ظاهرها .. فالاختلاف الذي نراه في ظاهر الأمور والأشياء في هذا الكون من منظارنا الظاهري ،

يختلف عن حقيقة هذه الأمور والأشياء من منظار عالم الأمر المجرد عن المكان والزمان والذي لا تجتمع فيه المتناقضات ..

فالقرآن الكريم الذي نزل تبياناً لكل شيء يقتضي من جملة ما يقتضيه أن يكون تبياناً لجميع الأسماء الحق في هذا الكون ، والتي تسمّى - من منظار الله تعالى - كل شيء في هذا الكون ..

وحتى تُدرك هذه الحقيقة نحتاج لمفاتيح أسرار القرآن الكريم ، للدخول إلى ما وراء الظاهر الذي نراه في كلماته وجملة ، ونحتاج أيضاً إلى مفاتيح إدراك ماهية الأشياء في هذا الكون .. عندها سنرى أنّ الحروف القرآنية والمفردات القرآنية والجمل القرآنية ينطوي تحت ما تصفه وتصوّره كل شيء في هذا الكون .. وفي الآخرة عندما يأتي تأويل القرآن الكريم سنرى هذه الحقيقة بأمّ أعيننا ..